تجليات الحب الإلهي وفلسفته في الشعر الصوفي "أبو مدين التلمساني أنموذجا"

دراسة تتناول العلاقة بين الحب الصوفي والحب العذري

بقلم الدكتور: رضوان محمد سعيد عجاج إيزولي

RADWAN MOH,D SAID EAZOLLI

جامعة البلقاء التطبيقية

الأردن

radwanm2010@gmail.com

الخلاصة:

ينبني هذا البحث على دراسة مقارنة بين الحب الصوفي والحب العذري حيث قام الباحث ببيان معنى الحب لغة واصطلاحا، كما بين أنواع الحب التي قسِّمت إلى ثلاثة أقسام: الحب الطبيعي، والحب الروحي، والحب الإلهي، كما بينت الدراسة الحب والمحبة، عند ابن عربي، وشعيب أبي مدين الغوث التلمساني أنموذج الدراسة.

وعرضت الدراسة إلى مدى تأثر شعراء الصوفية بشعراء الحب العذري، واستخدام ألفاظهم وتحويلها إلى رموز عرفانية بعيدة عن المقاصد الدنيوية والإنسانية، فظهر للباحث أن ألفاظ الحب لدى الفريقين واحدة إلا أن مقاصدهم مختلفة، فالعذرٌيون حبٌهم أرضي إنسانيّ، والصوفية حبهم إلهيّ سام يتعلق بالذات الإلهية، وتناول الباحث في الدراسة نماذج من الشعراء الصوفيين كابن الفارض وابن عربي، وركز في دراسته على ديوان شعيب أبي مدين التلمساني أنموذجا للدراسة.

Manifestations of divine love and philosophy in the art of Sufi poetry Abu-Madyan Attalmasani model

Abstract:

This paper is a comparative study between Sufi mystical love and 'udhri love (ideal or Platonic love). It focuses on the meaning of love in common language and as a technical term, and on the three different kinds of love that can be found in Sufi philosophy: natural love, spiritual love and divine love as they have been exposed in the works of Ibn Arabi and Abu-Madyan Attalmasani.

This study presents the influence of 'udhri love poets on Sufism, which used of their terms and transformed them into Gnostic symbols far from human and mundane meanings. The terms referring to love can be divided into two groups: in the first are included the terms used by 'udhri poets whose love is earthly and human, while in the second are found terms used by Sufis, whose love is Divine and its object is the Divine essence. Examples are drawn from Sufi poets like Ibn al-Faridh and Ibn Arabi, but especially from the poems of Abu-Madyan Attalmasani.

المقدمة:

لم يتأثر شعراء الصوفية بغرض من أغراض الشعر العربي كما تأثروا بشعر الخمرة والغزل، وكان لهذين الغرضين حضور قوي في الشعر الصوفي حيث استخدم الصوفيون مصطلحات العذريين وأساليبهم، بل ألفاظهم وصورهم عينها، وسبب ذلك عدم قدرتهم على استخدام لغة خاصة بالحب الإلهي بحيث تكون لغة يتعارفون عليها وخاصة بهم، كون الشعراء الصوفيين لم يصلوا إلى الحب الإلهي الخالص إلا بعد أن تمكنت اللغة الحسية لديهم، فيترجمون تلك اللغة التي اعتادوها إلى لغة روحية، فلا يجد الشاعر أمامه إلا لغة المحبين المتيمين بكل أشكالها وقوالبها الفنية، فيصورون مشاعرهم وأخيلتهم وقد أحالوها إلى، مصطلحات رمزية صوفية عرفانية بعيدة عن عالم الحس، لا يعرفها ولا يتذوقها إلا من خاض التجربة الصوفية.

وعليه فالصوفي والعذري سواء في الشعور بالجمالية، فتلك الأشعار الجميلة، ذات البعد الإنساني الطاهرة؛ ففي كل نجد معنى العفة، والطهر والإخلاص، والفناء في المحبوب، والصدق، ودوام اللهج باسم المحبوب، الذي لا يرى وجودا سوى وجوده، ولا يعشق معشوقا غيره؛ مثل هذه المعاني المثالية السامية هي التي جعلت أخبار شعراء الصوفية، والشعراء العذريين تشيع في البلدان ويسير بها الركبان.

وسؤالنا هو: هل هناك صلة بين الحب العذري والحب الصوفي ؟ فالجواب كما أسلفنا لا علاقة بينهما إلا من حيث المبدأ والغاية، ولكنَّ الشاعرين كليهما "العذري والصوفي" يعبران عما يتملَّكهما من عاطفة عارمة تجاه المحبوب، يعبران عنها بألفاظ حسية تتشابه في طرق التعبير عن الحب والهيام، فنجده في شعر المتصوفين: كرابعة العدوية وابن عربي وابن الفارض وعمر اليافي وعبد الغني النابلسي وأمين الجندي وأبي مدين الغوث التلمساني، وغيرهم من شعراء الصوفية، كما نجده لدى قيس وكُثَيِّر وجميل، وغيرهم من العذريين. وتجمعهما المعاناة الإنسانية، كالخوف المقلق من البعاد وعدم الوصال، والشوق المحرق للقاء

المحبوب، ولعل المتصوف في حبه لا يتيسر له أن يعبر عن شوقه وحبه إلا إذا كان قد عانى من الحب الإنساني، واحتدمت به عاطفته الإنسانية، ثم أحال ذلك الحب إلى حب أسمى، هو حب الذات الإلهية.

وعليه فالعلاقة بين الشاعر الصوفي والشاعر العذري علاقة مشابهة في الإخلاص والتوله للمحبوب، فكلاهما يصل إلى درجة الفناء في محبوبه، وكلاهما نهج المنهج نفسه، منهج المتعففين من العشاق، ونعلم ما بين العفة في الحب، وبين الزهد من تشابه، فكلاهما يترفع عن الغريزة الهابطة، ويتسامى بشعوره، فالعذري يتعلق بمحبوبته تعلقاً مثالياً، والصوفي ترتقي نفسه تأملا، حتى إذا فاض عليها الإشراق، تحققت بأن الله هو المعشوق الأول..."الظاهر في كل محبوب لعين كلِّ محب... فما أحبَّ أحدٌ غير خالقه، ولكن احتجب عنه تعالى بحب زينب وسعاد وهند وليلى والدرهم والجاه وكل محبوب في العالم، فأفنت الشعراء كلامها في الموجودات وهم لا يعلمون، والعارفون لم يسمعوا شعرا ولا لغزا ولا مديحا ولا تغزلا إلا فيه من خلف حجاب الصور، وسبب ذلك الغيرة الإلهية أن يحب سواه فإن الحب سببه الجمال وهو له؛ لأن الجمال محبوب لذاته والله جميل يحب الجمال".(1) وعليه فما أحب احد غير خالقه كما يرى ابن عربي في فلسفته للحب.

في بحثي هذا درست الحب الصوفي معناه وخصائصه ومظاهره، وكذلك الحب الإنساني من خلال علاقة التأثر بالغزل العذري والعذريين، واستخدام مصطلحاتهم وألفاظهم، متخذا من الشاعر أبي مدين شعيب التلمساني أنموذجا للحب الإلهي.

الحب لغة واصطلاحا: الحب لغة نقيض البغض، والحبُّ: الودادُ والمحبَّة. والحبُّ من حَبَبَ(2) ويقال: "حبَّبّ الشيءَ إليه: جعله يُحبَّه. قال تعالى: (وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمَان)، وتجمع على أحبّاء، وأحبَّة، وهي حبيبة"(3) وفي القرآن: ورد الحبُّ في أكثر من سبعين موضعاً(4) وقد دعا الله الناس إلى حبّه؛لأنه إله فقال تعالى:(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ

دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله) (البقرة: 16). والله يحبُّ الإنسان لأسباب: لصفة فيه، كالإحسان، والتوبة، والتطهر، والتقوى، والصبر، والتوكل، والإقساط، والقتال في سبيله، ولإتباعه لرسول الله.[5] ودون الإشارة إلى سبب استحق به العبد هذه المحبة.[6]

الحب في الاصطلاح الصوفي:"ميل دائم بقلب هائم، ويظهر هذا الميلُ أولاً على الجوارح الظاهرة بالخدمة وهو مقام الأبرار، وثانياً على القلوب الشائقة بالتصفية والتحلية وهو مقام المريدين السالكين، وثالثاً على الأرواح والأسرار الصافية بالتمكين من شهود المحبوب، وهو مقام العارفين"[7] فبداية المحبة: ظهور أثرها بالخدمة. ووسطها: ظهور أثرها بالسكر والهيام. ونهايتها: ظهوره بالسكون والصحو في مقام العرفان.[8]

أحوال أهل المحبة: يقسِّم الصوفية أهل المحبة إلى ثلاثة أقسام:محبة العامة، ومحبة الخاصة، ومحبة خاصة الخاصة.

أما محبة العامة: وشرطها صفاء الودِّ مع دوام الذكر؛ لأنَّ من أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره". وهذه الحال ينطبق عليها قول سهل بن عبد الله التستري (ت: 283هـ): "موافقة القلوب لله، والتزام الموافقة لله، واتِّباع الرسول مع دوام الاستهتار (الولع والشغف) بذكر الله تعالى ووجود حلاوة المناجاة لله، وكذلك ما قاله بعض المشايخ عن المحبة:"استهتار القلوب (شغفها) بالثناء على المحبوب وإيثار طاعته، والموافقة له كما قال القائل:

[الكامل]

لو كان حبّك صادقاً لاطعَتهُ   إن المحبَّ لمن يحبُّ مُطيعُ

ويتولد هذا الحال من إحسان الله إلى العامة وعطفه عليهم.

وأما محبة الخاصة: فتتولد من نظر القلب إلى غناء الله وجلاله وعظمته وعلمه وقدرته، وهو حب الصادقين والمتحققين. وشرطها هتك الأستار وكشف الأسرار. ومحو الإرادات، واحتراق جميع الصفات والحاجات.

وأخيرا محبة خاصة الخاصة من الصديقين والعارفين، تولدت من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله بلا علة، فكذلك أحبوه بلا علة. وهي حب الله الصافي الذي لا كدرة فيه، وسقوط المحبة عن القلب والجوارح، حتى لا يكون فيها المحبة، وتكون الأشياء بالله ولله، فذلك المحب لله. وقال أبو يعقوب السوسي: لا تصح المحبة حتى يخرج من رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب؛ بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب في الغيب ولم يكن هو بالمحبة، فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محباً من غير محبة.[9]

- **الحب عند ابن عربي:** يرى ابن عربي أنَّ المحبة "مقام إلهي وصف الحقُّ تعالى به نفسَه وتسمى بالودود" والحبُّ عند الشيخ الأكبر سبب وجود العالم لقوله: "كنت كنزاً لم أعرف فأحببتُ أن أعرف فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفوني".[10] "وإلا فالحبُّ لا يتعلق إلا بمعدوم يصح وجوده وهو غير موجود في الحال، والعالم محدث والله كان ولاشيء معه، فكان الحب أصل سبب وجود العالم والسماع سبب كونه... فالمحبة مقامها شريف وهي أصل الوجود-كما يراها ابن عربي في قوله:[11][12]

وعـــــن الحـــــبِّ صدرنـــــا	وعلـــى الحـــبِّ جُبِلنـــا
فلـــــذا جئـــــناهُ قصـــــدا	ولـــهذا قـــد قُبلـــنا

والمحبة "آية الاختصاص، ونتيجة الاصطفاء، والإخلاص"من قوله تعالى: "يحبهم ويحبّونه"(المائدة: 53). فيخلّصه الله تعالى من زيغ البصر، والتلفت في النظر[13] والمحبة الصوفية توصل المحب إلى درجة الفناء في المحبوب. "فما إن تتعلق الإرادة بمحبوب حتى تظهر على المحب أحكام الحب، إذ إن للحبّ سلطاناً به يحكم ويتحكم"[14] يقول ابن عربي: "إن

كل حبٍّ يحكم على صاحبه بحيث إن يصمّه عن كل مسموع، سوى ما يسمع من كلام محبوبه، ويختم على قلبه؛ فلا يدخل فيه سوى حبّ محبوبه، ويرمي قفله على خزانة خياله، فلا يتخيّل سوى صورة محبوبه، فبه يسمع وله يسمع وبه يبصر وله يبصر وبه يتكلم وله يتكلم، وكل حب يبقى في المحب عقلاً يعقل به عن غير محبوبه أو تعقلاً فليس بحب خالص". [15]

هذا هو الحب وهذا حكم الحب، الاستهلاك بالكلية فهو: "حب الذات للذات في الحضرة الأحدية بفناء رسم الحدوث في عين الأزلية [16] يقول أبو مدين التلمساني مصوراً فناءه في المحبوب الذي لا يتصور حياة إذا غاب عنه محبوبه، ويكاد يتفطر قلبه شوقا للقائه، فالبعد موت والقرب حياة، ولا يتصور غياب تجليات الذات عنه لنفسٍ واحد، وهنا يتماهى الشاعر فلا يرى في الوجود إلا الله، شأنه شأن المجنون، الذي لم ير في الدنيا إلا ليلى، يمرّ في ديارها مقبلا آثارها .

[الوافر]

أمُـــرُّ عَلـــى الـــدِيارِ دِيارِ لَيلـــى أُقَبِّـــــلَ ذا الجِـــــدارَ وَذا الجِـــــدارا
وَما حُبُّ الدِيارِ شَغَفنَ قَلبي وَلَكِن حُبُّ مَن سَكَنَ الديارا [17]

فها هو يشاهد ليلى في آثارها، متعلقا بجدرانها، ففي تلك الأطلال مشاهدات تذكره بليلى، وهذا التلمساني لا يمكنه أن يتخيل للحظة غياب أنوار الذات، التي يراها في مجالي الصفات الربانية، رؤية استحضار لمعاني تلك الصفات الإلهية، رؤية متواصلة فليلا في منامه، ونهارا في قلبه، ولولا تلك المشاهد التي يعيشها الشاعر لأنوار الذات لمات اشتياقا إليها. ويعبر الشاعر عن وجده باهتزازه إذا ذُكر اسمُ محبوبه، ويعلل ذلك الاهتزاز لما يعانيه من حرقة الحب الذي استقر في قلبه، فإذا ما سمع الشادي يشدو باسمه اهتز شوقا لِلّقاء، فيعبر التلمساني بلغة عذرية صوفية عن مواجيده تجاه الذات الإلهية فيقول:

[الطويل]

تضيــقُ بنــا الدنيــا إذا غبتُــمُ عنــا وتَذهَــبُ بالأشــواقِ أرواحُنــا منّــا

فبُعدُكُــمُ مــوتٌ وقُربكُــم حيــاة فـإن غبتمـوا عنّـا ولـو نفسـاً متنـا

نمــوت ببعدِكــمُ ونحيــا بقُربكــم وإن جاءنا عنكم بشيرُ اللقا عشنا

ونحيــا بذكراكــم إذا لــم نراكــمُ ألا إنَّ تذكــارَ الأحبَّــة ينعشنــا

فلَــولا معانيكــم تراهــا قلوبُنــا إذا نحـنُ أيقـاظٌ وفي النـوم إن غبنـا

لمتنــا أســى مــن بعدكــم وصبابــةً ولكــنَّ فــي المعنــى معانيكُــمُ معنــا

يحرُكنــا ذكــر الأحاديــث عنكــمُ ولـولا هـواكُم في الحشـا مـا تحرَّكنـا

فقُـل للـذي ينهـى عـن الوجـد أهلـهُ إذا لم تذُق معنى شرابِ الهوى دعنـا

إنه تعلق العاشق الواله الفاني عن ذاته ولا يرى في الوجود إلا محبوبه، فحياته بذكر حبيبه وقربه منه،وموته ببعده عنه، انه الفناء الصوفي الذي يغيبه عن كل ما في الوجود بحيث لا يرى ما سواه، فكل لفظ وكل شكل وكل حركة وسكون يرى فيها محبوبه، مهما كان ذلك الشيء، والمحب الصوفي يفنى بجمال الذات الإلهية عن ذاته مذ أطلت علية تلك البوارق والطوالع واللوامع، حتى فني عن ذاته ومحق عن صفاته، فغاب الحادث، وبقي القديم، وعبر التلمساني عن ذلك بوصفه لحال المحبين العارفين بقوله:

[الكامل]

فالعــارفونَ فنــوا ولمــا يشــهدوا شــيئاً ســوى المتكــبر المتعــال

و رأوا ســواهُ علــى الحقيقــةِ هالكــاً في الحــال والماضــي والاســتقبال

تجــد الجميــع يُشــيرُ نحــو جلالــهِ بلسان حالٍ أو لسان مقال[18]

فالفناء ديدن العارفين يفنون عن ذواتهم ليبقى المحبوب؛ في حالة من السكر الإلهي، والغيبة عن الذات في حالة من الاستغراق فلا يرون الحياة إلا من خلال الفناء به، والفناء فيه حياة لأرواحهم، فيتلاشى الكون، ويبقى المكون، وهذه غاية الصوفي لان العاشق الكامل هو المحب الكامل ولا يكون الكمال إلا بتلاشيهم كما تلاشى العذريون وهذا ما أشار إليه شاعرهم بقوله:

[مجزوء الرمل]

فبـــــــــــهِ تفـــــــــــنى فتحيـــــــــــــى	فـــــــــترى الكــــــــونَ اعتبـــــــــارا
وتـــــــــــرى الأفـــــــــــلاك تجــــــــــري	والى الله القــــــــــــــــــــــــــــرارا[19]

وأشار ابن الفارض بأنَّ الفناء عن ذاته هو عين الحياة، ويرى في ظهور ذاته موت بقوله:

[المجتث]

صـــــــارت جبـــــــاليَ دكـــــــا	مـــــــن هيبـــــــة المتجلـــــــي
ولاح ســـــــــــرٌّ خفـــــــــــيٌّ	يدريـــــه مـــــن كـــــان مثلـــــي
المـــــوت فيـــــه حيـــــاتي	وفي حيـــــــــــاتيَ قتلـــــــــــي
وصــــــرت موســــــى زمــــــاني	مـــــذ صـــــار بَعْضِـــــيَ كُلـــــي

فالمعنى الصوفي في قوله: صارت جبالي دكًّا "أي:جبال وجود الشاعر، وهذه الجبال ينسفها ربي نسفا، في مرحلة الفناء عن الذات، فيحصل الزوال من هيبة نور المتجلي، وهو الكبير المتعال ولا يكون ذلك إلا بعد موت النفس وقهرها، فإنها حينئذ تحيا بشهود ربّها، حياة لا موت بعدها. وفي قوله:" مذ صار بعضي كلي"، أي: إنما حصلت له المناجاة والقرب الحقيقي حين فنيت دائرة حسه، فاتصل جزء معناه بكل المعنى المحيط به، وهو بحر

المعاني المفني للأواني، فحصل السرور والهناء باللقاء، وقد عبر قبله عن المعنى نفسه أبو مدين التلمساني فقال:[20]

[الطويل]

أحب لقا الأحباب في كل ساعةٍ لأنَّ لقا الأحبابِ فيه المنافعُ

أيا قرّة العيون تالله إنَّني على عهدِكُم باقٍ وفي الوصلِ طامعُ

لقد نبتت في القلبِ منكم محبّة كما نبتت في الراحتين الأصابعُ

حرامٌ على قلبي محبّةُ غيركُم كما حرمَت عن موسى تلك المراضعُ

وما ذاك إلا سلطان الحب، فهو صاحب الفعل والتأثير، فهم قوم أخذ الحب ألبابهم، فهاموا بمن عشقوا، ورضوا بمقام العبودية، والتذلل للحبيب، فاستعذبوا العذاب من أجله، كما في قول ابن الفارض[21]

عبد رقٍّ ما رقَّ يوما لعتق هام واستعذب العذاب هناك

وقال التلمساني قبله:

كم صدودٍ وكَم قلا ووصالي بكُم غلا

لو صلي القلبُ بلظى ما سلاكُم وما فلا

عذّبوا كيفَ شئتُم فعذابي بكُم حلا

وها هو يضحي بأهله و وطنه، وأصحابه، ويستوحش من الخلق، ويستأنس بحبيبه الذي يسكن قلبه ولا يبرحه، ويرضى بالذل من أجله بل ويرى الذلّ له عين العزّ، لأنه من أجل المحبوب، بل يتهمونه بالجنون فيرى في الجنون لذة؛ لأنه من أجل المحبوب ويعبر عن ذلك بقوله:

طال اشتياقي ولا خل يؤانسني ولا الزمان بما نهوى يوافيني

هـذا الحبيـب الـذي في القلـب مسـكنه ... عليــه ذقــت كــؤوس الــذل والمحــن

عليـــه أنكـــرني مـــن كـــان يعـــرفني ... حـــتى بقيـــت بـــلا أهـــل ولا وطـــن

قـالوا جننـت بمـن تهـوى فقلـت لهـم ... مـــا لـــذة العـــيش إلا للمجـــانين

حين نظر الدارسون في دواوين المولهين من شعراء الصوفية، وقارنوها بشعراء الحب والغزل، فما وجدوا اختلافا في التعبير عن مواجيدهم تجاه من يحبون، فما وجدوا مناصا من تركها على ظاهر اللفظ، لأنه يعبر عن مشاعر المحبين تجاه محبوب له وجود على الأرض.

كثيرة هي الألفاظ والأسماء والعبارات التي تتردد في ثنايا دواوين الصوفية والتي تشكل إشكالية لفظية، أدت إلى احتمال الكثير منهم بأن مثل هذه الألفاظ إنما هي ألفاظ دنيوية توحي بالحسّية المحضة التي يستخدمها المولهون في التعبير عن معاناتهم، فظهرت المرأة في الأدب الصوفي، والغزل الإنساني: العذري منه والصريح.

ومن تلك الألفاظ: العشق، والهجر والضنى، والوجد والتذلل، والدّل والدّلال، واللعج والغنج، ورشف اللمى، وصقالة الخد، والشوق والهيام، واللقاء والفراق، والرقة والصبابة والأسى وغيرها من ألفاظ ومصطلحات الغزل العذري والصريح.

كل هذه الألفاظ وردت لدى الفريقين ولكن كل يغني على ليلاه، فشعراء الغزل العذري والصريح يتغزلون بمحبوب حسيّ فان، والصوفيون يتغزلون بباق دائم لا يفنى، وللصوفيين دلالاتهم ومبرراتهم على ما في قولهم من مبالغة ظاهرة لكل ذي لب سليم، لانَّ منطوق بعض الألفاظ لا يليق بأن يكون تغزلا في الذات الإلهية، والنقد له الظاهر، والمعنى الحقيقي في بطن الشاعر، مع اعتذارنا لهم فيما سوى ذلك من ألفاظ الحب التي أحيلت إلى رموز عرفانية يعرفه الصوفية أنفسهم، والمتخصصون المتمرسون في الأدب الصوفي.

فهذا النابلسي في مقدمة شرحه لديوان ابن الفارض، يقول:"إن كل تغزّل يقع في كلامه"ابن الفارض" سواءٌ كان مذكراً أو مؤنثاً أو تشبيباً في رياض أو زهر أو نهر أو طير، ونحو ذلك فمراده به الحقيقة الظاهرة المتجلية بوجهها الحق الباقي في ذلك الشيء الفاني، وليس مراده ذلك الشيء الذي هو في نظره وتحقيقه مجرد رتبة وهميّة وصورة تقديرية".[22] هذا تعليقاً على بيت ابن الفارض الذي يقول فيه:

كُحِّلتُ عيني عمى إن غيره نَظَرَتْهُ ايه عنى ذا الرُّشيْ

نرى الشاعر يدعو على نفسه بالعمى إن نظرت إلى غير هذه المحبوبة، يعني أنه لا ينظر إلا إليها من قبيل قول العفيف التلمساني من أبيات له:

[الطويل]

نظرتُ إليهِ والمليحُ يظنُنِي نظرتُ إليها لا ومبسمُها الألمى
ولكن أعارتْه إلى الحسنِ وصفها صفاتُ جمال فادّعى ملكها ظلما[23]

وحقيقة شعر أبي مدين الغوث وغيره من شعراء الصوفية هذا شأنه، لم يقصد إلا حبّه السامي الرفيع البعيد عن كل الشبهات الأرضية والإنسانية. وقد أشار التلمساني إلى لقائه مع العذريين والمحبين واختلافه بالمقصد بقوله:[24]

أوافق قوماً ضمهم مقعد الهوى وإن كان كل منهم قاصدا فنّا
فهذا يوري بالغزالة غِيرَةً وهذا بعين السكر يستملح الغصنا
وهذا بلين العطف يبدي صبابة وهذا يرى ميلا إلى المقلة الوسنا
وذا في سرور بالدنو وذا له غرام وهذا بالنوى يظهر الحزنا
وذا باسمٌ إذ نال ما كان طالبا وهذا يُسيل الدمع قد قرّح الجفنا
وذا خائف من قطعه بعد وصله وذا بالرضى من حاله وجد الأمنا

وهـــذا محـــب بالصـــدود مـــنعّم وذا آخــذ بالصــد مــن قربــه مضــنى
وهذا تساوى الوصل والهجر عنده فــأنحى إلهــا يقطــع الســهل والحــزنا
وهـذا يـرى بالسـيف منهـا إشـارة فيشـتاق سـعيا نحوهـا الضـرب والطعنـا[25]
وهـذا يـرى كـل الجهـات مقاصـدا وهــذا يــرى مهــدا علــى متنــه يبــنى
وما ضر هـذا الخلق والقصد واحد إذا نحـــن أخلصـــنا إليهـــا توجهنـــا
دعا باسمها الحادي ونحن على الغضا فقلنا له بالله من ذكرها زدنا
فجـاد إلى أن أهـدت الركـب نشـوة ونحــن علــى الأكــوار مــن طـرب ملنـا
لعمرك حتى العيس لـذ لهـا السـرى عجبـت لشـوق يشـمل الركـب والبـدنا
وحـتى غصـون البـان مالـت ترنحـا وغنــت عليهــا كــل صــادحة مثــنى
أهـل عائـدُ لي رقـدةٌ كـي أرى بهـا خيـــال رســولٍ زايــراً مضــجعي وهنــا
فـإن جـاءني بالقـرب منهـا مبشـرٌ وهبـــت لـــه ســـروراً ومـــا أغـــنى
حيينـا بهـا دهـراً وقـد حكمـت لنـا ونحـــن بهـــا نحيـــا يقينـــا إذا متنـــا
فلســت أرى عنــدي لحــالي تغـيّرا ولا مطرقـــا فكـــراً ولا قارعـــا ســـنا
وإني علــى مــا أكــد العهــد بيننــا مــدى الــدهر لا خنَّــا العهــود ولا حلنــا

يلتقي الصوفي مع العذري بجنون الحب؛ ودليل ذلك حضور شخصية المجنون وغيره من العذريين عند ابي مدين التلمساني، ونجده في القصيدة السابقة يعبر عن عشقه للمحبوب متخذا من شخصية مجنون ليلى والعذريين مثالا لاستغراقه وشوقه واستعذاب العذاب، بل يوافقهم في ألم الهوى صراحة ولكن يختلف معهم في المقصد الذي تسامى نحو الذات الالهية كما في قوله:

أوافـق قومـاً ضـمهم مقعـد الهـوى وإن كــان كـــل مـــنهم قاصـــدا فنّـــا
فهــــذا يــــورى بالغزالـــة غـــيرة وهــذا بعــين السـكر يسـتملح الغصـنا
وهـذا بلـين العطـف يبـدي صـبابة وهـــذا يـــرى مـــيلا إلى المقلـــة الوســـنا
وذا في ســـرور بالـــدنوّ وذا لـــه غـــرام وهـــذا بالنـــوى يظهـــر الحـــزنا
وذا باســم إذ نال مــا كــان طالبــا وهــذا يسـيل الـدمع قـد قـرّح الجفنـا
وذا خـائف مـن قطعـه بعـد وصـله وذا بالرضـــى مـــن حالـــه وجـــد الأمنـــا

والتلمساني يشكو الم الفراق وأرقه، فها هو يصرح بانه تماهى مع المجنون وأنّ حالهما واحدة فلذلك يقول تسميت بالمجنون من ألم الهوى، كما يرشد العشاق إلى أن يموتوا ميتة قيس الذي مات معذبا من صبابة الهوى، وهذا ما نقرؤه في قوله:

تـذلَّلت فِي البلـدانِ حيـن سبيتَنِـي وبـــــتُّ بأوجـــاعِ الهـــوى أتَقَلَّـــبُ
فلـو كـان لِي قلبـان عشـتُ بواحـدٍ وأتـــرُكُ قلبـــاً فِـــي هـــواكَ يعـــذَّبُ
ولكـــنَّ لِـــي قَلبـــا تَمَلَّكـــهُ الهَـــوَى فـلا العَـيشُ يهنـا لِي ولا المِـوت أقـرَبُ
كعصـفورةٍ فِي كـفِّ طفـلٍ يَضمهـا تَـذوقُ سِـياق المِـوت والطِّفـلُ يَلعَـبُ
فَـلا الطِّفـلُ ذو عَقـلٍ يَحـنُّ لِمَـا بِهـا وَلاَ الطَّـيرُ ذُو رِيـشٍ يَطِيـرُ فَيَذهَـبُ
تسمَّيـــتُ بالمِجنـــون أَلَـــم الهَـــوَى وَصَـارت بِيَ الأمثـال فِي الحَـيِّ تُضـرَبُ
فَيـا مَعشـرَ العُشَّـاقِ مُوتُـوا صَبابـةً كَمـا مَـــــاتَ بالهجـــــرانِ قَيـــــس معـــــذَّب

وها هو معجم العذريين يتردد في ديوان أبي مدين التلمساني ، فهو يعاني من العشق، والنأي والهجران، والوداع والبين وانفطار القلب من الفراق، كما يعاني من نار الوجد

واصطلامها. ولما عاش معاناة المحبين وتحقق من محبته بما جرى عليه من أثر الحب الذي عبر عنه بمصطلحات العذريين يكون التلمساني قد بلغ الذروة في الحب والغرام .

ومن يطالع قصائد الحب الإلهي دون أن يعرف صاحبها، سيتبادر لذهنه انه شعر في الغزل العذري فلنستمع لشعيب التلمساني وهو يشدو شاكيا آلام الفراق والتباكي على فقد الحبيب، مستوحيا ألفاظه من سورة يوسف :

لست أنسى الأحباب ما دمت حيا   مـــذ نأوا للنـــوى مكـــاناً قصـــيا
وتلـــوا آيـــة الـــوداع فخـــروا   خيفـــة البـــين ســـجداً وبكيـــا
ولـــذكراهمُ تســـيح دمـــوعي   كلمـــا اشـــتقت بكـــرة وعشـــيا
وأناجـى الإلـه مـن فـرط وجـدي   كمناجـــــاة عبـــــده زكـــــريا
وهـــن العظـــم بالبعـــاد فهـــب لي   رب بالقـــرب مـــن لـــدنك وليـــا
واستجب في الهوى دعـائي فـإني   لم أكـــــن بالـــــدعاء رب شـــــقيا
قـــد فـــرى قلـــبي الفـــراق وحقـــاً   كـــان يـــوم الفـــراق شـــيئاً فـــريا
واختفـــى نـــورهم فناديـــت ربي   في ظـــلام الـــدجى نـــداءا خفيـــا
لم يـــك البعـــد باختيـــاري ولكـــن   كـــان أمـــــراً مقـــــدراً مقضـــــيا
يا خليلـــي خليـــاني ووجـــدي   أنا أولى بنـــــار وجـــــدي صـــــليا
إن لي في الغـــرام دمعـــاً مطيعـــاً   وفـــؤاداً صـــباً وصـــبراً عصـــيا
أنا مـــن عـــاذلي وصـــبري وقلـــبي   حـــائر أيهـــم أشـــد عتيـــا
أنا شـــيخ الغـــرام مـــن يتبعـــني   أهـــده في الهـــوى صـــراطاً ســـويا
أنا ميـــت الهـــوى ويـــوم أراهـــم   ذلـــك اليـــوم يـــوم أبعـــث حيـــا

هنا تطالعنا لوحة فنية مليئة بالشوق والحزن والبكاء والشكوى وانفطار القلب من ألم الفراق ، فنجد الشاعر يتضرع بين يدي الله في جوف الليل طالبا الوصال ، كما نجد الشاعر في لوعته ووجده الذي صلى كبده صابرا ، وبقي كذلك إلى أن وصف نفسه بشيخ الغرام بمعنى انه وصل إلى أعلى درجات الحب والشوق المحرق والخوف المقلق مما جعله اشد معاناة من العذريين .

المزج بين الحب والخمرة:

ومن خلال استقرائنا لديوان التلمساني وغيره من دواوين الصوفية نجد علاقة قوية بين الحب ومجالس الأنس التي يدار فيها الشراب، وكما نجدهم قد وظفوا ألفاظ الغزل، واستخدموا ألفاظ الخمريين من الشعراء، والعلاقة بين الخمرة الحسية والخمرة الصوفية هي علاقة مشابهة، فمجالس الشراب جالبة للأنس والحب واللقاء مع المحبوب، إلا أن شراب الصوفية شراب من نوع خاص فشرابهم إلهيٌّ يأتيهم من خلال المعاني السامية التي تغيبهم عن وجودهم؛ لذا فخمرة الصوفية خمرة أزلية وخمرة غيرهم أرضية، ومجالسهم مجالس ذكر ومذاكرة وغيرها للعبث واللهو. وهذا ما صرح به شعراء الصوفية في أكثر دواوينهم[26] وهذا نجده عند التلمساني الذي صرح بأنه شيخ الشراب كما صرح بأنه شيخ الغرام:

أنا هــو شــيخ الشــراب مــا في المــلاح	لــــــــــــذَّ لي التمزيـــــــــــــق
ابســــطوا ســــجّادتي راحـــــاً بــــراح	قربـــــــــــــــوا الإبريـــــــــــــق
احملـــــوا تغريــــدتي في الاصـــــطلاح	يا ذوي التحقيــــــــــــــــــــق
يا أنا منــــــــــــه أنا حـــــــــــتّى أنا	همــــــــــــــتُ في ســــــــــــكري

شراب التلمساني الذي أسكره وغيبه عن حسه حتى وصل إلى درجة الهيام ولكنه يطلب حمل سكره على الاصطلاح الصوفي وهو الغيبة عن الحس بوارد قوي .

كل تلك الألفاظ العذرية والخمرية، خلقت إشكالية لدى دارسي الشعر الصوفي، وبيانا لمقصودهم الحقيقي لجأ بعض شعراء الصوفية للتصريح بمقصوده كيلا يساور القارئ شكا بأنَّ مقصدهم أرضي بل سماوي روحاني، كما فعل ابن عربي في شرح ديوانه "ترجمان الأشواق" حين أنكره بعض الفقهاء.

يقول ابن عربي: "فشرعت في شرح ذلك، وقرأ عليّ بعضه القاضي ابن العديم بحضرة جماعة من الفقهاء، فلما سمعه ذلك المنكر الذي أنكره، تاب إلى الله ورجع عن الإنكار على الفقراء، وما يأتون به في أقاويلهم من الغزل والتشبيب ويقصدون بذلك الأسرار الإلهية[27]

نعم إنها أسرار إلهية، فذات الشاعر مفقودة، يحلق في توحيده فيفنى عن وجوده، لا يرى غير الله.

ونجد ذلك واضحا خلال شعرهم، كما جاء في خمرية ابي الحسن الششتري في موشحه:

تَرْتَجِـــــــــــي أن تُقَـــــــــرَّبْ وتَـــــــرَى مـــــــا يَسُـــــــرَّك
ومـــــــن الصـــــــفو تُكْتَـــــب وبهـــــــم يَبْــــــدُوَ أمْــــــرَك
مِـــــــنْ شَـــــــرابي إِشـــــــربْ وتَــــــــــنعَّمْ بِسُــــــــــكْرَك
لاَ شَـــــــرابِ الـــــــدَّوالِي إِنَّهـــــــا أرضِـــــــيَّا
خَمْرُهَـــــا غَيْـــــرُ خَمْـــــرِي خَمْـــــــرَتِي أبـــــــديا
عَطْفُـــــه الحِـــــبَّ عِنْـــــدي بَهْجَـــــــةٌ وسُـــــــرور
أضْـــــــرَمَتْ نارَ وَجْـــــدي فَعَلَيْهـــــــا تَـــــــدورُ
جَنَّـــــتي يا أهْـــــلَ وُدِّي قُرْبُهَـــــا والْحُضـــــورُ
فَمَـــــتَى مـــــا يَـــــبِنْ لِي زَالَـــــتِ الْبَشَـــــرِيًّا
وتَحَوَّلـــــتُ غَـــــيْرِي في صِـــــفَا رَوْحانِيَّـــــا

مَــــن يُطيـــقْ إنْ تَجَلَّـــى ... نُـــورُ وجْـــهِ الحبيـــب

إلاَّ قَلْبـــاً تَمَـــلاَّ ... بالْقَريـــب الْمُجيـــب

مـــا الْهَـــوَى إلاَّ ذُلاَّ ... دَاوِني يا طَبيـــب

فَشِـــفائي وِصـــالِي ... والْوِصـــال مِـــنِّي لِيَّـــا

وعَـــذابي هَجْـــري ... وَيْـــحَ نفســـي الشَّـــجِيَّا

يا أخِـــي افْنَـــا تُشـــاهد ... كُـــلَّ سِـــرَّ عَجِيـــبِ

وتَجُـــلْ في مَشـــاهِد ... أُنْـــسِ قـــرْبِ الْحَبيـــب

حيْـــثَ لا يَبْقَـــى شـــاهِد ... أو عَـــذُول أو رَقيـــب

يا لَهَـــا مِـــنْ مَجَـــالِي ... حَضْـــرَةِ قدُوسِـــيَّا[28]

أنواع الحب الصوفي: فرّق الصوفية بين حب الإنسان لله ، وحب الله للإنسان "أما محبة العبد لله، فحالة تلطف عن العبارة، تحمل الإنسان على التعظيم له وإيثار رضاه وقلة الصبر عنه، والاهتياج إليه، وعدم القرار من دونه. ولا تتضمن محبة الإنسان لله ميلاً ولا اختطاطاً لتقديس حقيقة الصمديّة عن اللحوق والدرك والإحاطة، فهي لا توصف بوصف، ولا تحد بحد أوضح ولا أقرب إلى الفهم من المحبة.[29]

وأما محبة الله للإنسان إرادة الله أنْ يخصَّ الإنسان بالقربة والأحوال العليّة، وهي إرادة واحدة تختلف أسماؤها بحسب متعلقاتها، فإذا تعلقت بالعقوبة سميت غضباً، وإذا تعلقت بعموم النعمة سميت رحمة، وإذا تعلقت بخصوصها سميت محبة".[30]

ويقول الشعراني نقلاً عن ابن عربي: "لا يصح أن يكون الخلق في رتبة الحق تعالى أبداً، كما لا يصح أن يكون المعلول في رتبة العلة".[31]

الحبُّ الإلهي: هو حب العارفين الكمَّل ليس للفناء فيه سبيل، بل هو حب في غاية الصحو، وهو أكمل أشكال الحب، حب حُكِمَ في علم، والعارف علمه يسع حبه ويحتويه، فلا تظهر على العارف لوازم المحبة ونعوتها، فينسب إلى المعرفة لا إلى المحبة؛ في حال كونه محباً (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرُّ مرَّ السحاب) (النمل: 88). والمحبُّ لا يكون عارفاً، كما لا يكون العارف محباً، لأن المحبَ يظهر سلطان حبّه فيه، ويحكم على علمه، وتحكم فيه المحبة بآثارها ولوازمها، فيقال فيه محب وينسب إلى المحبّة، لا إلى العرفان، ولو كان عارفاً، لأن الحال عليه أغلب،[32] يقول ابن الفارض وهو من المحبين العارفين:[33]

قل للذين تقدموا قبلي ومن ... بعدي ومن أضحى لأشجاني يرَى

عني خذوا وبيَ اقتدوا وليَ ... اسمعوا وتحدثوا بصَبابَتي بينَ الورى

ويقول أيضاً:[34]

كلُّ من في حِماكَ يهواكَ لكن ... أنا وحدي بكلِّ من في حِماكا

يُحشَرُ العاشقون تحتَ لوائي ... وجميعُ الملاح تحتَ لواكا

والحبّ على قدر التجلي، والتجلي على قدر المعرفة، وكل من ذاب فيها (المحبة) وظهرت عليه أحكامها لسرٍّ تعطيه، لا يعرفه إلا العارفون فالمحبُّ العارف حيٌّ لا يموت، روح مجرد، لا خير للطبيعة بما يحمله من المحبة، حبُّه إلهي، وشوقه رباني، مؤيد باسمه القدّوس على تأثير الكلام المحسوس، برهان ذلك هذا الذي ذاب حتى صار ماء، لو لم يكن حب ما كان، هذا حاله، فقد كان محباً ولم يذب حتى سمع كلام الشيخ، فثار كامنُ حبّه، فكان منه ما كان.

فعاشق العشق الإلهي يترقى في مدارج عشقه كلما ازدادت معرفته، حتى أننا نستطيع أن نقول مع ابن عربي العارف الكامل هو العاشق الكامل"[35] الغيرة الإلهية قضت بألا يحبَّ سوى الله في الكون.

ولا يمكن الفصل بين حب الإنسان لله، وحب الله للإنسان وذلك لقوله **(يحبهم ويحبونه)** حيث إنّ المحبة متبادلة بين الحقِ والخلقِ، وإنْ كانت بنسبة مختلفة، لكلٍّ منهما، إلا أنّ نهايته من الطرفين أن يشاهد العبد كونه مظهراً للحق ... وأن يكون الحق مظهراً للعبد". (36)

● **بين الحب الصوفي والحب العذري:** كما أشرت في مقدمة البحث إلى أنّ هناك صلة وطيدة بين الغزل العذري والحب الصوفي، وأبو مدين التلمساني شأنه في ذلك شأن غيره من الشعراء الصوفيين. فقد عبر شعراء الصوفية عن حبهم ومواجيدهم بلغة العذريين والزهاد لما بينهما من علاقة في التسامي بالشعور، ففي "الحب العذري يتعلق المحب بمحبوبه تعلقاً مثالياً، فلا تراوده في حبه وساوس النفس، وهواجس السوء، ويتملكه شعور حاد بالتحريم الجنسي، وهو شعور أخلاقي يُعلي به غرائزه محاولاً إيجاد نوع من التوافق والتجانس بين ما يرغب فيه، وما يخشاه في الوقت نفسه.(37)

وقد وجد الصوفيون ضالتهم في التعبير عن مواجيدهم في ألفاظ الغزل العذري؛ لما بينهما من علاقة في المعاناة والحرمان، والشوق، والحنين، والتذلل للمحبوب، إلا أن الصوفية نقلوا ذلك الرمز الصوفي و رفعوه إلا "مستوى التجلي الإلهي، ورد الجمال الأنثوي إلى الجمال العالي المطلق الذي لا تعين له في نفسه، والذي تخلل التعينات الجميلة، مع بقائه على ما هو عليه من حيث الوحدة والإطلاق(38) مثال ذلك ما قاله ابن الفارض في حبه الإلهي المطلق.(39)

[الطويل]

وصـــرّح بإطـــلاق الجمـــال ولا تقـــل ... بتقييـــــدِه ميـــــلاً لزخـــــرفِ زينـــــةِ
فكـــلُّ ملـــيح حســـنُه مـــن جمالـــِها ... معـــارٌ لـــهُ بـــل حســـنُ كـــلّ مليحـــةِ
بهـــا قـــيسُ لبـــنى هـــامَ بـــل كـــلُّ عاشـــقٍ ... كمجـــــنون ليلـــــىَ أو كـــــثّيرِ عـــــزَّةِ
فكـــلٌّ صـــبا مـــنهم إلى وصـــفِ لبسِـــها ... بصـــــورةِ حســـــنٍ لاحَ في حســـــن صـــــورةِ

وما ذاك إلا أنْ بدَتْ بمظاهرٍ | على صِبَغ التلوين في كلِّ برزةِ
ففي النشأة الأولى تراءت لآدم | بمظهر حواءَ قبلَ حكم الأمومةِ
فهامَ بها كيما يكون به أباً | ويظهر بالزوجين حكمُ البنوَّة
وكان ابتدا حبِّ المظاهر بعضَها | لبعض ولا ضدٌّ يُصَدُّ ببغضةِ
وما برحتْ تبدو وتخفى لعلّةٍ | على حسبِ الأوقاتِ في كلِّ حقبةِ
وتظهر للعشاق في كلِّ مظهر | من اللبس في أشكال حسن بديعةِ
ففي مرةٍ لبنى وأخرى بثينة | وآونةٍ تُدعى بعزة عزَتِ
ولسنَ سواها، لا ولا كُنَّ غيرها | وما إن لها في حسنِها من شريكةِ
ففي مرةٍ قيساً وأخرى كثّيراً | وآونة أبدو جميلَ بثينةِ
تجليتُ فيهم ظاهراً واحتجبتُ با | طناً بهم فاعجب لكشفٍ بسترةِ

والملاحظ عند ابن الفارض أنه اتخذ من لبنى وليلى وعزة، وبثينة وقيس، وكثّير، وجميل، – وهم أشهر العذريين في الأدب العربي – نماذج للوحدة بين العاشق والمعشوق، فهم جميعهم شخص واحد وإن اختلفت أسماؤهم إشارة إلى الحقيقة الكليّة المطلقة وبهذا يكون الشعراء الصوفيون قد "رفعوا الحب الدنيوي إلى أفق له من الرفعة جعله قريباً من الحب الإلهي[40] و"من خلال هذا الجوهر الأنثوي رمز الصوفية إلى الحكمة العرفانية، والحب في مظهريه الإلهي والإنساني، من حيث ما يتضايفان، ويحيل كل منهما إلى الآخر".[41]

وتأثُّر شعراء الصوفية بالشعراء العذريين واضح وجلي فهذا قيس بن الملوّح يقول:

وماذا عسى الواشونَ أن يتقوّلوا | سوى أنْ يقولوا: إنني لكِ عاشقُ
نعم صدقَ الواشونَ أنتِ حبيبة | إليّ وإن لم تصفُ منكِ الخلائقُ

ويقول ابن الفارض:

وماذا عسى عني يُقال سوى غدا | بنعم لهُ شغلٌ؟ نعم لي بها شغلُ

ويقول قيس:

أباليـــأس، والـــداء والهُيـــام أصـــابني فإيــاكَ عــنِّي، لايــكُ بــكَ مــا بيــا

ويقول ابن الفارض:

ليـــنجُ خلِّـــي مـــن هـــوايَ بنفســـه ســـليماً ويانفســـي إذهـــبي بســـلام

ويقول المجنون:

وإني لأخشـــــى أن أمـــــوتَ فجــــاءة وفي النفس حاجاتٌ إليك كما هي

ولابن الفارض:

ذهـــبَ العمـــرُ ضـــياعاً وانقضـــى باطـــلاً إن لـــم أفـــز منـــكَ بشـــيء

و أوجه التلاقي والتأثر كثيرة، و واضحة في مثل هذه المعاني المشتركة.

ولعل تحوّل شخصية قيس بن الملوح في الأدب الصوفي إلى شخصية ذات طابع جنوني يظهرها على الصلة الوثيقة بين الغزل العذري والحب الصوفي، حيث لم يكن للجنون في الأصل معنى سوى التعبير عن استغراق قيس في عاطفته، وطغيان هذه العاطفة على جوانب شخصيته.(42) وقيس عند الصوفية رمز للمحب الذي فني عن أوصافه وذاته، وأنه كان كثير الإغماء عند ذكر ليلى وهذا شبيه لحالة الاستغراق المصاحب للذكر والحضور مع الله، والغيبة عما سواه.

وقول المجنون: "أنا ليلى" شبيه بقول الحلاج " أنا الحق" وهو في حال فنائه وشهوده لواجب الوجود.(43)

وإشارة أبي نصر السراج إلى وجود مجنون ليلى، دلالة على رمزية هذه الشخصية المبكرة عند الصوفية فيقول معللاً قول القائل لصاحبه: أنا أنت وأنت أنا، فمعناه: معنى الإشارة إلى ما أشار إليه الشبلي (ت 334هـ- 945م): حيث قال في مجلسه يا قوم هذا مجنون

بني عامر كان إذا سئل عن ليلى، فكان يقول: أنا ليلى، فكان يغيب بليلى عن ليلى حتى يبقى بمشهد ليلى، ويغيبه عن كل معنى سوى ليلى، ويشهد الأشياء كلها بليلى، فكيف يدعي من يدعي محبته، وهو صحيح مميّز، يرجع إلى معلوماته ومألوفاته وحظوظه، فهيهات أنّى له ذلك، ولم يزهد في ذرة منه،ولا زالت عنه صفة من أوصافه ؟! [مع أن] بذل المجهود للمعبود أدنى رتبة عند القوم". (44)

على الرغم من العلاقة الوثيقة بين الغزل العذري والحب الصوفي، في الطهر والنقاء والعفة، والنبل والحنين، والغياب في المحبوب، والتوحد، والفناء، والعناء والسهر، والتذلل... إلخ، إلا أنّ الفرق يبقى واضحاً بينهما.

ذلك أنّ الصوفيين دفعوا بالحب والمحبوب إلى مرتبة السمو والتعالي لكنّ العذريين كان غزلهم يميل إلى اللوعة واللهفة المتصلة بكائن أنثوي لا يخرج عن الدنيوية بأي حال من الأحوال. والصوفيون ترفعوا وارتقوا إلى أفق الاتصال بكائن أنثوي ما عدا امرأة دنيوية محددة الهوية والشخصية فلقد بلغوا إلى ضرب من "إلهي المطلقة" التي تشمل المرأة وتتجاوزها في آن واحد، حتى لكأنَّهم منهكون بماهية الوجود، أو بهوية تجريدية تتراءى للبصيرة ولا تُرى بالبصر.

بينما يعمد العاشق العذري إلى التوله بهذه المرأة بالذات فقيس يعشق ليلى، وكُثِّير يعشق عزة وجميل يعشق بثينة مثلاً وبينما تبقى ليلى مجرد امرأة تقبل الشخوص والتجسيد والمثول، فإن الشاعر الصوفي جعل من ليلى اسماً للكلية، أو لسر الكينونة المصون عن الأبصار، كما أنه قد وحَّد جميع المعشوقات في امرأة واحدة لا وجود لها على أيّ نحو عيني مفرد ثم دمج هذه المعشوقة التجريدية الحيَّة في حقيقة تجريدية أخرى، فكان العشق الصوفي مجرد حنين نبيل إلى المطلق والفرق الحاكم بين العذريين والصوفيين أنّ إلْهي المطلقة التي يحاورها الصوفيون يرتفعون بواسطتها إلى أفق الروحانية الخالصة. (45)

وختاما مهما طالعنا شعراء الصوفية من ألفاظ غزلية صريحة كانت أو عذرية، أو ألفاظ مستوحاة من معجم شعراء الخمرة، فما مقصودهم إلا الذات المطلقة مهما كان اسمها، فليلى وسلمى و سعدى و هند و دعد كلها معنى لأسماء صفات الحسن الإلهية، خاصة أنَّ مثل هذه الألفاظ تهمس تارة وتبوح تارة أخرى بمعاناة عاشقين معذبين عاشا تجربة واحدة وأحسوا أحاسيس واحدة، وكلاهما إنسان يعيش التجربة الحبية، ولكن العلاقة كما أسلفنا علاقة مشابهة في علاقة الحب واختلاف المحبوب، فهو عند الصوفية الذات الإلهية التي يفنى المحب بها فلا يرى وجودا سوى وجوده تعالى لأنه وجود باق، و وجود ليلى العامرية وهند العبسية، هالك فانٍ، والتعلق بالسامي الباقي سيبقى خالدا، وهذا ما أشار إليه أبو مدين التلمساني في قوله:

الله قـــل وذر الوجـــود ومـــا حـــوى إن كنـــت مـــرتادا بلـــوغ كمـــال

فالكـــــــل دون الله إن حققتـــــــــه عـــدم علـــى التفصـــيل والإجمـــال

واعلـــم بأنـــك والعـــوالم كلهـــا لـــولاه في محـــو وفي اضمحـــلال

مـــن لا وجـــود لذاتـــه مـــن ذاتـــه فوجـــوده لـــولاه عـــين محـــال

فالعـــارفون فنـــوا بأن لم يشهـــدوا شـــيئا ســـوى المتكـــبر المتعالـــي

و رأوا ســـواه علـــى الحقيقـــة هالكـــا في الحـــال والماضـــي والاســـتقبال

ومن غزلياته الرائعة التي تتردد على مسامع كبار الصوفية والتي اشتملت على ألفاظ العذريين ومقاصد الصوفيين والتي تصرح بتباريح الهوى، في حالة من الهيام والتيه، والمعاناة في كتم ما يعانيه ، ولكن الحب ظهر على جوارحه فسالت دموعة غزيرة، إضافة إلى السُّهاد والوجد والاكتئاب واللوعة والشوق والسقم والاصفرار، جمع الشاعر خلالها كل معاناة العذريين والصوفيين.(46)

تَملَّكتمـــوا عقلـــي وطـــرفِي ومسمَعـــي وَرُوحِـــي وأحشـــائِي وَكلـــي بأجمَعـــي

وتيّهتُمونِـــــي فِي بديـــــع جَمالِكُـــــم وَلَم أدر فِي مَجْـــرَ الهَـــوَى أَيـــنَ مَوضـــعي

وأوصَيتُمونِـــــي لا أبــــوح بسرِّكُــــم　　فبــاحَ بِمــا أُخفِــي تفيــضُ أدمعـــي
ولَمَّـــا فَـــنَى صبــري وقـــلَّ تَجَلُّـــدي　　وفـــارَقَنِي نَـــومِي وحُرِّمَـــت مضجعـــي
أتَيــت لِقاضـــي الحُـــبِّ قُلـــتُ أحبَّتِـــي　　جَفَــوِنِي وقَــالُوا أنــت فِي الحُــبِّ مــدَّعي
وعنــــدي شهــــودٌ للصَبابــــةِ والأســــا　　يزكُّــــونَ دعــــوايَ إذا جئــــتُ أدَّعـــي
سُــهادي وَوَجــدي واكتئــابِي ولوعتِـــي　　وشــوقي وســقمي واصــفراري وأدمعـــي
ومـــن عجـــبٍ أَنِّـــي أَحـــنُّ إِلَيهِـــم　　واســـألُ شـــوقاً عنهـــم وهـــمُ معـــي
وتبكـــيهُم عيـــنِي وهـــم فِـــي سوادِهـــا　　ويشــكو النَّــوى نــبِي وهــم بــين أضلُعــي
فَـــإِن طَلبـــونِي فِـــي حُقـــوقِ هَواهُـــم　　فإنِّـــي فَقِيـــرٌ لا علـــيَّ ولا معـــي
وَإِن ســـجنونِي فِي سجـــونِ جفاهُـــم　　دخَلـــتُ عليهـــم بالشفيـــعِ المشَفَّـــعِ

بهذا التوق والوله، نجد الصوفيين يتغزلون بسر غامض لا وجود له في عالم المحسوسات بل وجوده ملأ قلوبهم وشغل أرواحهم، أنساهم عالم المحسوسات، لاعتقادهم بأن الروح خالدة والجسد فانٍ.

النتائج

خلص البحث إلى النتائج التالية:

1. الشعر الصوفي شعر يعبر عن مواجيد وتجليات تتعلق بالذات الإلهية.
2. استخدام ألفاظ العذريين وشعراء الخمرة وإحالتها الى رموز عرفانية تعارفوا عليها.
3. تأثر شعراء التصوف بغيرهم من شعراء الغزل والخمرة
4. الحب الصوفي حبّ الهي ذو أبعاد فلسفية حيث جعلوا حبهم للهي المطلقة، فغزلهم وحبهم تجسد في الجمال المطلق، فلم يكن للجسد فيه حظ ألبته
5. يعد أبو مدين التلمساني [ت594هـ] من شعراء الصوفية السّباقين لإحالة ألفاظ الغزل والخمرة إلى رموز عرفانية تأثر به اللاحقون كابن عربي [ت638هـ] وابن الفارض [ت632هـ] وهما من رواد الشعر الصوفي.
6. الرمز الصوفي رمز عرفاني له دلالاته ومصطلحاته، وبناء عليها يجب ان تقوم الدراسات النقدية والفنية، ولا تدرس على ما تعارفت عليه المدرسة الرمزية الفرنسية الحديثة .

الهوامش والإحالات:

(1) ابن عربي، محي الدين مُحَمَّد ، الفتوحات المكية،د ط، د.ت، ج2، ص 326 ، دار الكتب العربية الكبرى، مصر .

(2) ابن منظور، جمال الدين مُحَمَّد، لسان العرب، ص: 290، ط3، د ت، المجلد الأول، دار صادر، بيروت.

(3) مدكور، إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مادة حبَّ، ج1، ص:151 ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(4) عبد الباقي، مُحَمَّد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص191، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(5) انظر الآيات: (الصف:4)، (الممتحنة:8)، (البقرة:222)، (آل عمران:31)، (المائدة:53).

(6) الحكيم سعاد، المعجم الصوفي ، ط1، دندره للطباعة والنشر، بيروت، 1980، ص301.

(7) عجيبة، عبد الله أحمد، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ص32 ، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء.

(8) ابن عجيبة، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ص32.

(9) الطوسي، أبو نصر السراج، اللمع ، ص86-88 ، تحقيق: الدكتور عبد الحليم محمود، وعبد الباقي سرور ، 1960م ، دار الكتب الحديثة، مصر .

(10) العجلوني، إسماعيل بن مُحَمَّد، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس. أشرف على تصحيحه والتعليق عليه: أحمد القلاش، ط7، 1997، ج2، ص173، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(11) **(12)** ابن عربي، الفتوحات المكية ص 323 ،ج2.

(13) الكاشاني، عبد الرزاق ، معجم اصطلاحات الصوفية، ص307 ، ط1 ، ت 1992، تحقيق: د. عبد العال شاهين ، دار المنار، القاهرة.

(14) الحب الإلهي والحب الإنساني عند ابن عربي، بحث للدكتورة سعاد الحكيم قدم في معهد العالم العربي-باريس-1993.

(15) ابن عربي، الفتوحات المكية ، ج2، ص325- 326.

(16) الكاشاني، عبد الرزاق ، معجم اصطلاحات الصوفية ، ص308.

(17) مجنون ليلى، ديوان مجنون ليلى، ص131، 1979، ط، تحقيق وشرح: عبد الستار احمد فراج، مكتبة، مصر.

(18) التلمساني، شعيب أبو مدين ، ديوان أبو مدين التلمساني، ص1، نشره نجله محمد بن العربي، ط1، مطبعة الترقي، دمشق، 1938م.

(19) الشاغوري، عبد الرحمن عابدين (ت1425هـ/2004م) ديوان الحدائق الندية في السمات الروحية ، مكتبة اسامة بن زيد، حلب، اقيول، ط1، 1996، ص122.

(20) التلمساني، ديوان أبو مدين التلمساني، ص64.

(21) البوريني، حسن، والنابلسي، عبد الغني، شرح ديوان ابن الفارض، دار التراث، بيروت، د.ط، د.ت، ص215.

(22) النابلسي، عبد الغني بن إسماعيل (ت 1143هـ/1730م) وحسن البوريني (ت1024هـ / 1615م)، شرح ديوان ابن الفارض، ط1، دار التراث ، بيروت، ج1، ص 60.

(23) النابلسي، شرح ديوان ابن الفارض، ج1، ص60.

(24) د. عاطف جودت نصر- الرمز الشعري عند الصوفية، ص 168، ط3، 1983 دار الأندلس - لبنان. وقد عزا المؤلف البيتين إلى أبي مدين التلمساني. انظر القصيدة كاملة في موسوعة الشعر العربي الالكترونية، ديوان التلمساني، ص72، الإصدار الأول، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم.

(25) إشارة إلى قول عنترة في في محبوبته عبلة: "ولقد ذكرتك والرماح نواهل: مني وبيض الهند تقطر من دمي" "فوددت تقبيل السيوف لأنها: لمعت كبارق ثغرك المتبسم". العبسي عنترة (توفي -22ق هـ/601م) ديوان عنترة بن شداد، مطبعة الآداب، بيروت، 1893، ص84.

(26) انظر خمرية ابن الفارض: شربنا على ذكر الحبيب مدامة، وخمرية الشاغوري: وترى القوم سكارى وهم ليسوا سكارى وخمرية اللششتري (668هـ/ 1269م): خمرها غير خمري خمرتي أزلية.

(27) ابن عربي، محيي الدين (543هـ/1184م)، ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق- بيروت، 1312، ص 4، 5.

(28) الششتري أبو الحسن، علي بن عبد الله، ديوان الششتري، ص310، ط1، 1960، تحقيق الدكتور علي سامي النشار، دار المعارف، الإسكندرية، نصر .

(29) حاشية العروسي على الرسالة القشيرية، ج4، ص86/ نصر، عاطف جودة، شعر عمر ابن الفارض، ط1، دار الأندلس، بيروت، 1982، ص252.

(30) نصر، عاطف جوده ، شعر عمر ابن الفارض، ص252.

(31) الشعراني ، عبد الوهاب، اليواقيت والجواهر، ص: 58.

(32) غراب ، محمود محمود، الحب والمحبّة الإلهية من كلام الشيخ الأكبر، ص: 176.

(33) ابن الفارض، عمر، ديوان ابن الفارض، ص: 143، 164، 165.

(34) ابن الفارض، عمر، ديوان ابن الفارض، ص: 165.

(35) الحكيم، الحب الإلهي والحب الإنساني عند ابن عربي، ص14.

(36) راجع الفتوحات المكية، ج2، ص: 111، والحب الإلهي والحب الإنساني عند ابن عربي، سعاد الحكيم ص15-16.

(37) نصر، عاطف جوده ، شعر عمر بن الفارض، ص166.

(38) نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، ص: 175.

(39) ابن الفارض، عمر، ديوان ابن الفارض، ص56-57.

(40) ابن الفارض شاعر الحب الإلهي، يوسف سامي اليوسف . ص:52.

(41) الرمز الشعري عند الصوفية ، د. عاطف جودة نصر، ص255.

(42) نصر، عاطف جوده، شعر عمر بن الفارض، ص118.

(43) شعر عمر بن الفارض، ص118.

(44) الطوسي، اللمع، ص437.

(45) اليوسف، يوسف سامي ، ابن الفارض شاعر الحب الإلهي، ص56.

(46) ديوان شعيب أبو مدين الغوث د.ط، د.م، د.ت، ص59، ومنه أخذت جميع الشواهد التي تتعلق بأبي مدين .

يصدر المخبر العدد الرابع من مجلته ، بعدما سلخ من عمره ثلاثة عشرة سنة أرسى فيها دعائمه وهياكله، وأنجز عدداً من مشاريع البحث، والنشاطات العلمية وكوّن عددا معتبرا من طلبة الماجستير والدكتوراه في مجالات ذات صلة وثيقة بطبيعة المخبر، وبذلك أصبح يتوفر على طاقات و كفاءات تمكّنه من إصدار مجلة يريدها علمية أكاديمية تعمل من أجل التراكم المعرفي في الأدب العام والمقارن وكلّ ما يتصل به.